

الفصل الثاني

الآثار الفكرية للفرق الإسلامية :

المبحث الأول : المفاضلة بين الصحابة .

المبحث الثاني : الحرب بين علي ومعاوية .

المبحث الثالث : عقيدة المهدي المنتظر .

المبحث الرابع : مآثم الحسين " الحسينية " .

المبحث الخامس : تأثير الثقافة والأدب بالفكر الشيعي .

المبحث السادس : الإنتاج الفكري والثقافي لأتباع الفرق الإسلامية

كان لتواجد الفرق الإسلامية بالأندلس أثر كبير في ظهور العديد من أفكارهم في الأوساط الأندلسية وتبنى البعض لها، كمسألة المفاضلة بين الصحابة ، والحرب بين علي ومعاوية ، والمهدي المنتظر، والنزعة الشيعية في الأدب ، والاستطاعة والجبر، ومرتكب الكبيرة ، وخلق القرآن ، وإمامة المفضول ، وغير ذلك ، وسوف يقتصر الحديث في هذا الموضوع على الأربع مسائل الأول فقط ، باعتبارها الأكثر تأثيرا في الحركة التاريخية في المشرق والمغرب على السواء، فضلا عن اتساقها مع موضوع الدراسة وتخصصها.

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

obeyikan.com

المبحث الأول : المفاضلة بين الصحابة

ترجع هذه المسألة إلى أيام النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان الصحابة يفاضلون أبا بكر على عمر وعمر على عثمان (1) ثم قبيل وفاته (ص) اشتدت هذه المسألة من خلال الطائفة التي التفت حول علي بن أبي طالب وطلبت منه أن يطلب الخلافة لنفسه ، ثم ازداد الأمر شدة بعد نشوب الحرب بين علي ومعاوية ، والتي كانت بداية حقيقية لنشأة كل من الشيعة والخوارج ، ومن ثم تبلورت هذه المسألة وبدا القول فيها أحد المبادئ الهامة لدى هاتين الفرقتين ومن تبعهما من الفرق الأخرى ، فقد ذهب جميع فرق الشيعة إلى أن أفضل الأمة بعد رسول الله (ص) هو علي بن أبي طالب ، في حين ذهب الخوارج إلى أن أبا بكر هو أفضل الصحابة بعد رسول الله (ص) ثم عمر ، وذهب البعض من المرجئة والمعتزلة إلى رأى الشيعة ، في حين ذهب البعض الآخر منها إلى رأى الخوارج (2).

كان طبعيا لأهل السنة أن يشاركوا برأى في هذه المسألة ، فأفتى جمهورهم بتفضيل أبا بكر وعمر على من بعدهما ، في حين ذهب البعض منهم إلى أفضلية علي بن أبي طالب ، وتوقف آخرون منهم كداود بن علي الظاهري فلم يحدد أشخاص ، بل قال إن أفضل الناس بعد الأنبياء أصحاب رسول الله (ص) وأفضلهم الأولون من المهاجرين ثم الأولون من الأنصار ثم من بعدهم ، وقد كان هذا الرأي منتشرًا بين بعض الأندلسيين ومنهم ابن عبد البر النمري صاحب ابن حزم والذي تمسك به منذ أن كان ظاهري المذهب ، وظل يعتقد حتى بعد تحوله للمذهب المالكي ، وغيره من متقدمي طلبة العلم الذين رأهم ابن حزم (3).

(1) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، دار الفكر ، القاهرة ، د.ت ، ص 41، 42 .

(2) ابن حزم ، الفصل ، 32/3 .

(3) البغدادي ، الفرق ، ص 302 ؛ وأنظر : ابن حزم ، الفصل ، 32، 33/3 .

وبعض من قدم عليا من أهل السنة كان يعتمد على ما ورد عن الصحابي الجليل أبي الطفيل عامر بن وائلة من أنه كان يعترف بفضل أبي بكر وعمر ، لكنه يقدم عليا حسب ما نقله ابن عبد البر (1).

أما غالب فقهاء المالكية فكانوا متابعين للإمام مالك في قوله : ما أدركتُ أحدًا ممن أقتدى به يشك في تقديم أبي بكر وعمر .

كذلك روج بعض الحنابلة الذين عرفتهم الأندلس لرأى إمامهم أحمد بن حنبل بشأن المفاضلة حيث قال : " لم يكن بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلاف أن عثمان أفضل من علي " .

وأما الشافعية الذين عرفتهم الأندلس فتمسكوا بقول إمامهم الشافعي : " ما اختلفَ أحدٌ من الصحابة والتابعين في تفضيل أبي بكرٍ وعمرَ وتقدمهما على جميع الصحابة ، وإنما اختلفَ من اختلفَ منهم في عليٍّ وعثمانَ " (2).

وأما بشأن الأشاعرة فقد وجدنا أبا الحسن الأشعري يتحدث عن مسألة المفاضلة دون حسم حيث قال : " وأختلفوا في التفضيل : فقال قائلون : أفضل الناس بعد رسول صلى الله عليه وسلم : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، وقال قائلون : أفضل الناس بعد رسول صلى الله عليه وسلم : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، وقال قائلون : نقول : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم نسكت بعد ذلك ، وقال قائلون : أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : علي ثم بعده أبو بكر ، وقال قائلون : لاندرى أبو بكر أفضل أم علي (3) .

1 نقلا عن ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 4/2278.

2 نقلا عن البيهقي : الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد ، تحقيق أحمد بن إبراهيم أبو العينين ، دار الفضيلة ، ص 192.

3 أنظر : مقالات الإسلاميين ، 2/147.

وعلى نفس المنوال وجدنا الباقلاني الذي انتشرت كتبه وأقواله بالأندلس يذهب إلى عدم تحديد الأفضل فيقول: " أن الكلام في التفضيل مسألة اجتهاد لا يبلغ الخطأ بصاحبه فيها منزلة الفسق , وما يوجب البراءة : لأن الفضائل المروية أكثرها متقابل متعارض في الفضل , وما يذكر من السبق إلى الإسلام والجهاد وغير ذلك محتمل التأويل " (1).

وقال أيضا : " فأما القائلون بأننا نقف فيهم من غير قطع على تفضيل أحد منهم أو قطع تساويهم في الفضل , فإنهم أقرب إلى الصواب , وأقدر على الاحتجاج " (2).

ومما سبق يتضح تفاوت الآراء بين فقهاء السنة بالأندلس من المالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية , وبين الأشاعرة والمعتزلة والمرجئة بشأن مسألة المفاضلة الأمر الذي اضطر أحد أعلام الفكر الإسلامي بالأندلس وهو ابن حزم الظاهري أن يفصل الحديث عن هذه المسألة تفصيلا إذ خصها بدراسة مستفيضة أسماها (المفاضلة بين الصحابة) , وكان في ذلك مندفا تحت تأثير عدة أسباب :-

الأول: انتشار آراء كل فرقة ومذهب , واحتدام الخلاف الفكري بين أتباع كل طائفة , فأراد أن يحتوى هذا الخلاف خاصة وهو أول من أصل دراسة الفرق الإسلامية بالأندلس .

الثاني: مقاومة بنى حمود العلويين الذين كانوا يدعون أحقيتهم بالخلافة اعتمادا على انتسابهم لعلی وفاطمة , فأراد ابن حزم أن يبين أن هذين اللذين يتنسبون إليهما ليسا لهما الفضل الأول , بل هناك من هو أفضل منهما , ومن ثم فقد فضل ابن حزم نساء النبي على فاطمة ابنته , وفضل أبا بكر وعمر على علي بن أبي طالب .

1أنظر : مناقب الأئمة الأربعة , تحقيق سميرة فرحات , دار المنتخب العربي , ط 1 , 1422هـ / 2002م , ص295.

2نفسه , ص513.

الثالث: الخلاف الشديد بين الصحابة والتابعين أنفسهم حول أفضل الناس بعد النبي (ص) فمنهم من قال جعفر بن أبي طالب ومنهم من قال علي ومنهم من قال سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعباد بن بشر، وهناك من فضل أبي سلمة، ومنهم من قال عبدالله بن مسعود، ومنهم من قال عمر بن الخطاب، فأراد ابن حزم أن يخرج برأى واحد من واقع دراسته يظن أنه الصواب، خاصة وأنه صاحب الرأي القائل الحق من الأقوال واحد، وما دونه فكله باطل، وقد تمثل هذا الرأي في أن افضل الناس بعد الأنبياء نساء النبي (ص) ثم أبو بكر ثم عمر بن الخطاب، ثم المهاجرين الأولين ولم يقطع بفضل واحد منهم ثم أهل العقبة ثم أهل بدر ثم أهل المشاهد مشهدا مشهدا حتى الحديبية (1) والواضح من رأيه أنه جمع فيه بين الاجتهاد ورأى إمام مذهبه داود، فقد ذهب إلى رأى لم يذهب إليه أحد قبله، وهو تفضيل زوجات النبي على سائر الصحابة، ثم توقف بعد عمر في عدم القطع على شخص بعينه وهو قول إمام مذهبه.

لقد كان ابن حزم يظن أنه سيحسم الخلاف في هذه المسألة برسالته السابقة، إلا أن الأمر جاء بخلاف ما كان يتصور إذ أنها أدت إلى إذكاء نار الخلاف بينه وبين مخالفيه من المالكية وأتباع الفرق الإسلامية، بل تعدى الأمر إلى معارضة بعض أصحابه، وبعض مثقفي الأندلس له في ذلك. فقد لقي معارضة من الشيعة لتقدمه أبي بكر وعمر علي، وجعله على في مرتبة مع غيره من الصحابة الأولين دون تمييز، واعترض عليه الأشاعرة فيما ذهب إليه من تقديم نساء النبي على جميع الصحابة، ثم أبي بكر بعدهن، واعترض عليه أحد أقطاب المالكية في عصره وهو مكى بن أبي طالب لتفضيله نساء النبي على أبي بكر وعمر (2).

(1) أنظر: رسالة المفاضلة بين الصحابة، نشر وتحقيق سعيد الأفغاني، دار الفكر العربي، بيروت 1389هـ/1969م، ص 264، 173-267.

(2) رسالة المفاضلة، ص 258، 216، 210، 205، 199، 197؛ وأنظر: الفصل، 3/46.

وبالرغم من هذه المعارضات المتعددة فقد رد ابن حزم عليها بحجج قوية تساند رأيه وتؤيده ، وضمن ردوده هذه رسالته في المفاضلة ، ليقف القراء على نقده كما وقفوا على اعتراضات معارضيه ، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر رده على أحد مخالفيه الذي احتج عليه بأن نساء النبي لسن أفضل من أبى بكر وعمر لقوله تعالى (وليس الذكر كالأنثى) [سورة آل عمران آية 36] فأجابه ابن حزم بأن الآية ليس فيها من الفضل شئ ، مثل قول القائل الحمرة غير الخضرة والعكس ، ولو كان الأمر كما ذهب لكنت أنت أفضل من مريم وعائشة وفاطمة (1) .

لقد كان لهذه المعارضات السابقة أثر كبير في الترويج لرأى ابن حزم ، ومن ثم فقد وجد من الأندلسيين من يوافقه كما وجد من يعارضه ، فضلا عن تبني بعض الظاهرية لرأيه بعد أن كانوا قد توقفوا في أمر المفاضلة كما كان شأن إمام مذهبهم الأول داود بن علي ، بل إن أثره تعدى ذلك إلى تصنيف بعض الظاهرية وهو ابن دحية الكلبي كتابا فاضل فيه بين الصحابة المشاركين في معركة صفين أسماه "الإعلام المبين في المفاضلة بين أهل صفين" (2) وهذا أوضح دليل على أثر ابن حزم ونجاحه في التمكين لوجهة نظره الكامنة في ضرورة معرفة أفضل الصحابة ثم الذين يلونهم ليزداد المؤمن اتباعاً وإحساناً للأفضل منهم .

(1) نفس المصدر، ص 216، 217 .

(2) المقرئ ، نفع الطيب، 2/306 .

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

obeyikan.com

المبحث الثاني: الحرب بين علي ومعاوية

هذه إحدى المسائل التي زادت من حدة الخلاف الفكري بين الفرق الإسلامية. بل بين أهل السنة أنفسهم ، فقد ذهب جميع الشيعة وجمهور المعتزلة وبعض المرجئة إلى أن عليا كان المصيب في هذه الحرب ، وكل من خالفه على خطأ ، في حين ذهبت الخوارج إلى أن عليا مصيب في قتاله أهل الجمل يعنون أصحاب عائشة ، وأهل صفين يعنون أصحاب معاوية ، ومخطئ في قتاله أهل النهروان ، في حين توقف جمهور أهل السنة في حرب علي لمعاوية ، وذهب بعضهم إلى نفس مذهب الشيعة (1).

لقد انتقلت هذه الأقوال والأفكار إلى الأندلس عن طريق المذاهب الإسلامية ، ثم عن طريق الفرق الإسلامية ، وأدت إلى إحداث اضطراب فكري بين الأندلسيين شأنها في ذلك شأن ما نشأ بالشرق .

ومن أبرز من عالج هذه القضية من فقهاء الأندلس الكبار ابن حزم الظاهري الذي أراد أن يحتوى هذا الخلاف فأفتى رغم نزعة الأموية بأن عليا هو المصيب في الحرب ، وأنه صاحب الحق فله أجرين أجر الاجتهاد وأجر الإصابة ، ومعاوية ومن معه مخطئون مأجورون أجرا واحدا وهم مؤمنين باغين (2) ويرجع بحث ابن حزم في هذه المسألة للآتي :-
أولا : الاتهام الذي وجه لابن حزم بأنه من المعادين لعلي رضي الله عنه ، والمدافعين عن الأمويين ومعاوية .

ثانيا : طلب بعض الأندلسيين منه أن يفتيه في هذه المسألة .

ثالثا : النصوص التي رجحت كفة على علي معاوية ، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم (تمرق مارقة بين طائفتين من أمتي تقتلها أولى الطائفتين بالحق) والمارقة هم الخوارج ، وعلى

(1) ابن حزم ، الفصل، 78/3 .

(2) نفس المصدر، 86/3 .

هو الذي قاتلهم ، وقوله (ص) (تقتل عمارا الفئة الباغية) وكان مقتله على يد أبي العادية يسار بن سبيع السلمي من معسكر معاوية بن أبي سفيان (1) وتجدر الإشارة إلى أن رأى ابن حزم هذا قد لقي معارضة من قبل طوائف لم يذكر إلى أى مذهب ينتمون ، كانوا يذهبون إلى تصويب محاربي يوم الجمل (أصحاب عائشة) ويوم صفين (أصحاب معاوية) ، وقد رد ابن حزم عليهم ردا استخدم فيه ثقافته المتعددة من فقه وجدل وتاريخ وحديث ليوضح لهم أوجه الحق في ذلك وملخص هذا الرد أن على بعد قتل عثمان كان هو الإمام الواجب طاعته ، وأن معاوية خرج عليه ، وقدم الأخذ بشار عثمان على بيعته لعلى فهو مخطئ في ذلك ، ولو بايع معاوية لقوى على به على الحق وأخذ بالتأثر من قتلة عثمان ، ولبايع حينئذ بلا شك كل من امتنع من الصحابة عن البيعة لعلى منعاً للفرقة(2)

ومما سبق يتضح أن الفرقة التي عارضت ابن حزم كانت تتسم بميولها لمعاوية ضد على ، وأن ابن حزم بالرغم من نزعه الأموية فلم يوافقهم قولهم ، انطلاقاً من النصوص التي تصوب رأى على على معاوية .

ويتضح أثره بخصوص هذا الشأن على (أبى بكر بن العربي المالكي) الذى صنف كتاباً في تحقيق مواقف الصحابة بعد الرسول (ص) أسماه (العواصم من القواصم) تبني فيه الكثير من آراء ابن حزم ، كصحة وجوب خلافة على ، وصوابه في حربه مع معاوية وأن الحق كان معه ، واستخدامه الأسلوب الجدلي والفقهي في الدفاع عن الصحابة ضد الخوارج والشيعة وغيرهما (3) بل إن أثره امتد إلى المغرب حيث تبني المؤرخ الشهير ابن خلدون في

(1) ابن حزم ، الفصل، 3/86،87، والحديث الأول رواه مسلم في كتاب الزكاة من صحيحه،باب ذكر الخوارج وصفاتهم، والحديث الثاني رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير من صحيحه، باب مسح الغبار عن الرأس في سبيل الله .

(2) أنظر: الفصل، 3/82،83،85،87،88 .

(3) أنظر: العواصم من القواصم، ص 147-168، 150-174 .

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

القرن الثامن الهجري رأى ابن حزم في الخلاف بين علي ومعاوية (1) ولا شك في تأثير الكثير من تلاميذه ومريديه بهذا الرأي ، وهكذا فقد ترك ابن حزم أثرا واضحا في الفكر الأندلسي. خاصة وأن بعض هذه الآراء لم يطرقها أحد بالأندلس قبله ، إذ أن مذهب أهل السنة كان ينهى عن النظر فيما نشب بين الصحابة من نزاع، ومن المخطيء ومن المصيب 0

(1) أنظر: المقدمة، ص144 .

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

obeyikan.com

المبحث الثالث: عقيدة المهدي المنتظر

اشتق اسم المهدي من فعل هدى؛ أي بيّن طريق الهدى وعرفه وأرشد إليه؛ ومنه اشتق اسم الهادي الذي هو من أسماء الله الحسنى، وخلافه ضل، أي تاه وأخطأ وزاغ عن الصراط المستقيم، ويدل المصدر هدى على الطاعة والورع وبذلك يدل اسم المفعول مهدي على الذي قد هداه الله إلى الحق⁽¹⁾، وهو من الهداية. وسمي بذلك لأنه يهدي الناس هداية إرشاد إلى الحق.

أما المهدي المجمع عليه عند الشيعة الاثنا عشرية، فهم يعتقدون أنه محمد بن الحسن العسكري الذي غاب في سرداب "سامراء" وعمره خمس سنوات سنة (260هـ)، وهم ينتظرون خروجه إلى هذا اليوم، ليظهر القتل في أهل السنة فيكون قتلاً ذريعاً لا مثيل له، ويهدم البيت الحرام والمسجد النبوي، وينبش قبري أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويصلبهما ويحرقهما، وأنه يحكم بشريعة داود عليه السلام، وهذا من الأدلة على جذورهم اليهودية، وقد أسس مذهبهم عبدالله بن سبأ اليهودي الذي أظهر حب أهل البيت نفاقاً، حتى يتمكن من هدم الإسلام عن طريق تقديس الأئمة، والغريب في الأمر انتظارهم له على باب السرداب، وهم يصيحون به أن يخرج إليهم قائلين: "اخرج يا مولانا"، ثم يرجعون بالخيبة والحرمان فهذا دأبهم. ولقد أحسن من قال:

كلمتوه جهلكم ما أنا

ثلثم العنقاء والغيلانا

ما آن للسرداب أن يلد الذي

فعل عقلوكم العفاء فإنكم

1 ابن منظور، لسان العرب، مادة هدى .

أصبحت نظرية المهدي تمثل جزءاً مهماً من الممارسات العملية في الفكر الشيعي المعاصر، وما دعوة ولاية الفقيه التي ينادي بها فريق من الشيعة إلا جزء من هذه الممارسة، حيث يقوم الفقيه العالم، مقام المهدي الغائب، إلى أن يؤذن له بالظهور. وبسبب الاجتهاد المفتوح عند الشيعة، فقد تعددت وجهات النظر في موضوع المهدي والمهدوية، لدرجة أن أحد الكتاب من الشيعة المعاصرين وهو أحمد الكاتب أنكر تماماً ولادة محمد بن الحسن العسكري (المهدي)، وقد أصدر في ذلك كتاباً بعنوان (تطور الفكر السياسي الشيعي.. من الشورى.. إلى ولاية الفقيه).. تناول فيه قضايا مثيرة للجدل في موضوع (المهدي المنتظر)⁽¹⁾.

عرفت الأندلس هذا المعتقد منذ دخول الإسلام إليها، ثم بدأت ترسخ بها على أيدي علماء من أهل السنة والشيعة على السواء، حتى أن أحد الأمراء الأمويين وهو أحمد بن معاوية بن هشام الأموي المعروف بالقطب الثائر أعلن في عام 288هـ/901م أنه المهدي المنتظر، وهذه هي المرة الأولى التي نسمع فيها بهذا المصطلح في الأندلس، وبعد ذلك ازدادت ترسيخاً من خلال محاولات الفاطميين في نشر الدعوة الشيعية وأصولها بالأندلس⁽²⁾.

وفي عصر الخلافة الأموية بالأندلس وجدنا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبدالرحمن الناصر يطيح بهشام المؤيد بن الحكم المستنصر من الخلافة في العام 399هـ وتسمى بالمهدي⁽³⁾، وتعتبر هذه هي التسمية الأولى لخليفة سني أموي بهذا الاسم مما يؤكد حقيقة الأثر الفكري للفرق الإسلامية بخصوص قضية المهدي التلقب أو التسمية به. الجدير بالذكر أن معظم فقهاء السنة من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم أقرروا بعقيدة المهدي المنتظر، ولكن في قالب يختلف تماماً عن قالبها الشيعي، وهذا الإقرار كان معروفًا في

1 ظاهرة دعاوي المهدي المنتظر وجذورها التاريخية: جريدة الشرق الأوسط: السبت 12 رمضان 1423هـ
(2) دوزي: المسلمون في الأندلس، ترجمة حسن حبشي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1998 م
، 12، 13/2؛ وانظر: محمود مكى: التشيع في الأندلس، ص 101.
3 ابن حزم: رسالة في ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس، رسائل ابن حزم، 2/196.

المجتمع الأندلسي حتى القرن الخامس الهجري الذى شهد ظهور شخصية مؤثرة في الفكر الإسلامى خاصة والإنسانى عامة هو ابن حزم الظاهرى فكان منه أن رفض هذه العقيدة ، ومن ثم لم يتعرض لها في تدوينه لأصول الدين ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما أفتى بأنه لا يرجع أحد في آخر الزمان ، ولا رجعة إلا يوم القيامة، حيث يرجع الله المؤمنين والكافرين للحساب والجزاء⁽¹⁾ ويرجع هذه الرفض إلى الآتى :-

أولاً: أن تلك العقيدة إحدى الأصول التى بنى عليها المذهب الشيعي هى ومسألة الرجعة .

ثانياً: أن هذه العقيدة تدعو إلى عدم الاجتهاد ، والتقليد لشخص يزعمون له العصمة وهو ليس كذلك ، وهذا يتعارض مع ما كان يدعو إليه ابن حزم من فتح باب الاجتهاد ونبذ التقليد والاتباع للآخرين .

ثالثاً: ضعف الأحاديث الواردة بخصوص هذا الشأن عنده ، ولذا فقد اعتبرها من اختلاق الروافض ، وأنها وليدة تأثر باليهود والنصارى والمجوس⁽²⁾.

كان ابن حزم من أوائل من شكك في عقيدة المهدي وألصقها بالشيعية ، ولم يعتبرها من عقيدة أهل السنة. إذ لم يرد فيها نص صحيح عنده ، كما أن نصوص القرآن لم تؤيدها ، هذا في الوقت الذى كان فيه معظم الأندلسيين على اقتناع تام بتلك العقيدة اعتماداً على أن

(1) أنظر: المحلى، 43/1 ، وعن الأحاديث الواردة بخصوص هذا الشأن أنظر ابن كثير، البداية والنهاية، 8/30-39.

(2) أنظر: الفصل، 1/372، 165، هناك من المحدثين والفقهاء من صحح أحاديث المهدي واعتبرها متواترة ومنهم الحافظ أبوالحسين الأيرى السجزي ، والقرطبي، والحافظ ابن حجر، والحافظ لسخاوى، ولشوكاني، الذي صنف كتاباً سماه "التوضيح لبيان تواتر حديث المنتظر والدجال والمسيح" وصنف تلميذه السيد صديق خان القنوجى ملك بهبال بالهند كتابه "الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة" يوضح فيه تواتره أيضاً . أنظر : عبدالله الصديق الغمارى: الحاوي في فتاوى الغمارى، دار الأنصار، القاهرة ، ط1، 1402هـ/1982م، ص21، 20.

معظم علماء أهل السنة ذهبوا إلى ذلك ، ومن ثم فلا شك أنه لقي معارضة شديدة منهم ، خاصة الشيعة الذين كانوا يمثلون طائفة كبيرة ، والمالكية الأندلسيين الذين درجوا على التقليد .

وأياً ما كان الأمر فقد مكن المنصور الموحدى لرأى ابن حزم عندما رفض عصمة المهدي ابن تومرت الذى ادعى أنه المهدي المنتظر، وشهد بحجر الكعبة أنه لا يقول بعصمته، وطبق ذلك عملياً بدولته. إذ أنه كان يعترض على من يصف المهدي بالإمامة والعصمة بحضرتة ويغضب منه⁽¹⁾ وفى عهد المأمون إدريس بن يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن تمكنت عملية معارضة المهدي حيث أمر بمحو اسمه من السكة والخطبة ، وأعلن أن وصفه بالإمام المعصوم نفاق وبدعة وأمر باطل ، حيث أنه لا مهدي إلا عيسى عليه السلام ، وكان عمله هذا هو رغبة أبيه المنصور الذى كان من أشد حكام الدولة تأثراً بابن حزم ، ولم يترتب على ما فعله المأمون أية معارضة من قبل الرعية ، بل أشاد الشعراء بتصرفه وأزجوا إليه مدائحهم فى قصائد عديدة⁽²⁾ وبذلك فقد نجح فى تصديق تلك العقيدة واختفى الحماس الذى كان لها فى أوائل العهد الموحدى ، ودب الشك فى الإيذان بها.

انتقل هذا الأثر إلى مفكرين أندلسيين مشهورين من أمثال (ابن العريف الصوفى) الذى أفتى فى رسالة له رداً على تساؤل عن المهدي "وانتظار مهدي يصلح به لا يعتقد حصيد ،

(1) المراكشي، المعجب، ص291، 292.

(2) ابن خلدون، العبر، 6/253، وأنظر ابن الخطيب ، الإحاطة، 1/419، 420؛ محمد عبدالله عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص370-372؛ محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى، مينا للنشر، ط1 1992م، 3/177 .

ولا يظن مثله بمسلم إلا ضعيف" (1) بل إن أثره امتد في القرن الثامن الهجري إلى المغرب حيث تبنى رأيه المؤرخ الشهير ابن خلدون ، وجمع الأحاديث الواردة بشأن المهدي ، وتعرض لها بالنقد ، وخرج من ذلك برفض هذه الفكرة من أساسها(2) وهكذا فقد نجح ابن حزم في إثارة فكرة جديدة لم يسبقه إليها أحد من الأندلسيين ، تركت أثرا واضحا على الفكر الأندلسي من خلال تبنى مفكرين مشهورين لها، فضلا عن تبنى بعض حكام الدولة الموحدية لها وتطبيقها مما كان له أكبر الأثر في تبنى الكثيرين من الرعية لها.

وإذا كان رأى ابن حزم في عقيدة المهدي قد وجد صدق واسع داخل المجتمع الأندلسي. فإنه قد جانب الصواب ، وذلك لورود نصوص صحيحة لم يطلع عليها ابن حزم تثبت حقيقة المهدي المنتظر، منها ما ورد في سنن ابن ماجة التي لم تعرفها الأندلس إلا بعد وفاة ابن حزم ، حيث أخرج عن ثوبان قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : يَقْتَبِلُ عِنْدَ كَنْزِكُمْ ثَلَاثَةَ كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ ، ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَطْلُعُ الرَّايَاتُ السُّودُ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَكُمْ قَتْلًا لَمْ يَقْتُلْهُ قَوْمٌ ، ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ فَقَالَ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايِعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلَجِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمُهْدِي(3).

وفي عهد الموحدين وجدنا أول حكامهم محمد بن تومرت المرغى يتلقب بالمهدي متأثرا في ذلك بالشيعية في ادعائهم عصمة المهدي ، وكانت بدايته مع فكرة المهودية أنبداً يذكر لأتباعه المهدي مجردا عن اسمه ، ويشير إلى اقتراب ظهوره، ولما كثر أتباعه جعل يشوقهم إليه

(1) أنظر: مفتاح السعادة ، مخطوط بالخزانة الحسينية بالرباط ، رقم 1562 ، ورقة 98، نقلا عن جمعة شيخة ، التصوف الأندلسي بين الدين والسياسة خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، دراسات أندلسية، رمضان 1419هـ/1999م، عدد 1، ص 74.

(2) أنظر: المقدمة، ص 218-231 .

(3) أنظر: كتاب الجهاد من سنن ابن ماجة، باب الرايات والألوية.

، ويجمع الأحاديث الواردة بشأنه تمهيدا للإفصاح عن فكرته الرئيسية وهي أنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم ومن ثم أعلن على الملأ سنة 515هـ/1121م: (وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة ، وهي ركن من أركان الدين ، وعمدة من عمد الشريعة ، ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة ولا يكون الإمام إلا معصوما) . ثم إن ابن تومرت يتوعد من لا يؤمن بفكرته عن العصمة والمهدوية بأنه كافر جاحد أو فاجر فاستق(1).

لقد وُجد من العلماء بالمغرب والأندلس من أيد فكرة ابن تومرت حول العصمة والمهدوية ، بل إن اثنين من حكام الموحدين بعده وهما عبدالمؤمن بن علي وابنه يوسف عمدا إلى نشر المهدوية والعصمة المرتبطة بشخص المهدي في سائر بقاع الدولة الموحدية ، ورغم معارضة بعض العلماء بالأندلس للمهدوية كأبي الحسن عبدالمملك بن إياس القرطبي الذي ألف كتابا طعن فيه في مبادئ الموحدين . فإن عبدالمؤمن بن علي كان حريصا على مقاومة أي معارضة لمبادئ الدولة التي اصلها ابن تومرت ومنها المهدوية ، ومن ثم انتدب للرد علي ابن إياس القرطبي بعض الأعلام الذين عرفوا بقوة الحججة في الجدل والمناظرة(2).

بل وجدنا من أعلام الظاهرية في عهد الموحدين من كان يدعو لعصمة المهدي ابن تومرت وهو ابن مضاء النحوي قاضي القضاة في عهد الموحدين ، ورغم تأصل هذه العقيدة بين العامة والخاصة والفقهاء فإن المنصور الموحدى أصاب هذه العقيدة في مقتل عندما أعلن رفضه لها ، وكذا ابنه المأمون من بعده ، وابن المأمون الرشيد كل ذلك قضى على التأثير الشيعي في فكرة المهدوية ، ومن ثم وجدنا أهل السنة يرفعون أصواتهم بحقيقة المهدي المنتظر

(1) أنظر : كتاب أعز ما يطلب ، نشر جولد زهير ، الجزائر، 1903م ، ص 245، 246، 254؛ صلاح السيد ، التربية الإسلامية بالمغرب الأقصى ، ص 65، 66؛ عبدالباقى السيد : الظاهرية والمالكية وأثرهما في المغرب والأندلس في عهد الموحدين ، دار الآفاق ، القاهرة ، 2014م ، ص 111 .

(2) عبدالمجيد النجار ، المهدي بن تومرت ، 474، 425، 426؛ وانظر : عبدالباقى السيد : مرجع سابق ، ص 114 .

ومن هؤلاء ابن عربي الصوفي الذي أعلن في عهد المنصور الموحدى رأيه علانية في المهدي المنتظر فقال: "إعلم أيدنا الله أن لله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً فيملؤها قسطاً وعدلاً، ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد طول الله ذلك اليوم حتى يلي هذا الخليفة من عترة رسول الله من ولد فاطمة يواطىء اسمه اسم رسول الله جده الحسين بن علي بن أبي طالب يبايع بين الركن والمقام...، يقسم المال بالسوية ويعدل في الرعية، ويفصل في القضية... يفتح المدينة الرومية بالتكبير في سبعين ألفاً من المسلمين من ولد إسحاق...، يضع الجزية... يرفع المذاهب من الأرض فلا يبقى إلا الدين الخالص أعداؤه مقلدة العلماء أهل الاجتهاد لما يرونه من الحكم بخلاف ما ذهب إليه أئمتهم فيدخلون كرها تحت حكمه خوفاً من سيفه وسطوته ورغبة فيما لديه، يفرح به عامة المسلمين أكثر من خواصهم، يبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف بتعريف إلهي، له رجال إلهيون يقيمون دعوته وينصرونه هم الوزراء يحملون أثقال المملكة ويعينونه على ما قلده الله، ينزل عيسى ابن مريم بالمنارة البيضاء بشرقى دمشق.. فيتحنى له الإمام من مقامه فيتقدم فيصلي بالناس يؤم الناس بسنة محمد صلى الله عليه وسلم، يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويقبض الله المهدي إليه طاهراً مطهراً" (1).

ومما سبق يمكننا أن نخلص بعدة حقائق:

أولها: أن ابن عربي التزم في كلامه عن المهدي المنتظر ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من أحاديث ذكرها أصحاب السنن، وإن كان اختلط عليه الأمر في مسألة وضع الجزية عن أهل الكتاب فهذا ليس للمهدي حسب النصوص إنما لعيسى بن مريم (2).

(1) أنظر: الفتوحات المكية، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1420هـ/1999م، 6/51.

(2) أنظر: سيد سابق، العقائد الإسلامية، دار الفكر، بيروت، 1412هـ/1992م، ص250-255.

ثانيها : أن ابن عربي يؤكد على ظاهريته عندما جعل أتباع الدين الخالص الذين يبقون مع المهدي هم أهل الاجتهاد ، أما المقلدة ومذاهبهم فلا مكان لهم .

ثالثها : أن تأكيد ابن عربي على الاجتهاد فيه ما فيه من تبكيت الشيعة الإمامية على قولهم بالعصمة والتقديس للأئمة .

رابعها : أن التأثير الصوفي على ابن عربي لم ينفصل عنه في هذا الموضوع عندما جعل أهل الكشف وأهل العرفان هم من يبايعون المهدي . فجمع في هذا الموضوع بين الظاهرية والصوفية إذ جعل أهل الاجتهاد والنص ، وأهل الكشف والعرفان من أتباع المهدي .

وقد عقب أحد الباحثين على كلام ابن عربي السابق بقوله " ومما يلفت النظر في هذا النص أن الشيخ محيي الدين بن عربي سمى المهدي خليفة لا إماما بخلاف ما درج عليه الشيعة ، وقد أكد بعبارته المذكورة أن المهدي المنتظر هو ذلك الذي تنتظره الشيعة الإثنا عشرية مما يفهم أن ابن عربي إما أن يكون شيعيا إثنا عشريا ، وإما أن يكون ممن فضلوا الإثنا عشرية ، والخلاصة أن المتصوفة يقولون برجعة المهدي المنتظر سائرين تماما مع العقيدة الشيعية (1).

وهذا مجانب للصواب من وجوه :

الأول : أن الخليفة هو الإمام ولا فرق ، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فذكره بلفظ الإمامة بقوله (الأئمة من قريش) أى الخلفاء ، وذكره بلفظ الخلافة في قوله : (لا يزال هذا الدين قائماً حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة) (2) .

(1) علام ، الدعوة الموحدية ، ص 287.

(2) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي والطبراني ، وأصله عند البخارى ومسلم . وقد يتوهم البعض أن هذا الحديث يثبت حقيقة الشيعة الإثني عشرية ، ولكن هذا الحديث يتحدث عن إثني عشر خليفة يحكمون في تاريخ الإسلام منهم أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وقد تحدث النبي عن هؤلاء الأربعة بقوله صلى الله عليه وسلم " عليكم بستى وسنة الخلفاء الراشدين " فهؤلاء أربعة من الإثني عشر ، والباقون عند العلماء منهم عمر بن عبدالعزيز . المهم أنه ليس في الحديث أى حجة للشيعة الإثني عشرية الذين لا يؤمنون أصلاً بخلافة

الثاني: أن مسألة المهدي المنتظر ليست عقيدة شيعية فحسب بل هي مسألة سنوية أصيلة وورد ذكرها في أحاديث صحاح منها قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **يَقْتَتِلُ عِنْدَ كَنْزِكُمْ ثَلَاثَةَ كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ ، ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَطْلُعُ الرَّايَاتُ السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَكُمْ قَتْلًا لَمْ يُقْتَلْهُ قَوْمٌ ، ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ فَقَالَ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايِعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى التَّلَجِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمُهَدِّيُّ**(1) ، وقد كان ذكر المهدي المنتظر مشهورا بين الصحابة والتابعين وخرج أئمة السنة من المحدثين أحاديثه من أمثال أحمد بن حنبل والترمذي وأبوداود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وعبدالرزاق وغيرهم ، وقد حكم جماعة من العلماء على هذه الأحاديث بالتواتر(2).

الثالث: أن ابن عربي لم يقل بالرجعة هنا ، وإنما قال بما أخبر به النبي من أن المهدي سيظهر في آخر الزمان يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا .

أبى بكر ولا عمر ولا عثمان ، ويجعلون أول أئمتهم على بن أبى طالب رضى الله عنه . أنظر : ابن حجر : فتح البارى ، 13/224 وما بعدها .

(1) أنظر : كتاب الجهاد من سنن ابن ماجه ، باب الرايات والألوية .

(2) منهم الحافظ أبوالحسين الأيرى السجزي ، والقرطبي ، والحافظ ابن حجر ، والحافظ السخاوى ، والشوكاني ، الذي صنف كتاباً أسماه "التوضيح لبيان تواتر حديث المنتظر والدجال والمسيح" وصنف تلميذه السيد صديق خان القنوجى ملك بهال بالهند كتابه "الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة" يوضح فيه تواتره أيضا . أنظر: عبدالله الصديق الغمارى ، الحاوي في فتاوى الغمارى ، ص 20، 21؛ التويجى ، الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر ، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، ص 26، 27، 147، 160، 161 .

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

obeyikan.com

المبحث الرابع : مآثر الحسين ” الحسينية ”

كان من آثار حب أهل البيت أولاً ثم التشيع ثانياً أن عرفت الاحتفالات بيوم عاشوراء وهو اليوم الذى استشهد فيه الإمام الحسين بن على رضى الله عنه وهو العاشر من المحرم ، وكان الصالحون يذبحون الذبائح ، ويعدون الطعام ، ويدعون الناس لتناوله احتفالاً بهذه الليلة (1) ، وكان للمعلمين نصيب من الطعام أو جعل يجعل لهم أقره فقهاء المالكية وأجازوه (2) ، وقد حث فقهاء المالكية الناس على الإنفاق على أهلهم والتوسعة عليهم فى هذا اليوم ، ومنهم ابن القطان الفاسى المالكى صاحب النزعة الظاهرية الذى صنف رسالة بخصوص هذا الشأن أسماها (فضل عاشوراء وما ورد فى الإنفاق فيه على الأهل) (3).

ويرتبط بعاشوراء الاحتفال بذكرى استشهاد الإمام الحسين ، حيث كانت تقام المآتم ، وتقدم الأطعمة ، وتضاء الشموع ، وتوقد البخور ، وتنشد المراثى الحسنة التى كانت تسمى بالحسينية ، ومنها قصيدة لأبى بحر صفوان بن إدريس التجيبى (ت 598هـ/1201م) ، وأخرى لناهض بن محمد الوادى آشى (ت 615هـ/1218م) (4) ، وقد صنفت العديد من الكتب فى رثائه منها (تقريظ سيدنا الحسين ووصف مآثره ونظم جواهر مفاخره) للفقير

(1) سعيد أبوزيد ، الحياة الاجتماعية فى الأندلس ، ص 179 ؛ وانظر : عصمت دندش ، الأندلس فى نهاية عصر المرابطين وبداية عهد الموحدىن ، رسالة دكتوراة ، آداب عين شمس ، 1406هـ/1986م ، ص 267.

(2) الونشريسى ، المعيار ، 254/8.

(3) محمود مكى ، مقدمة نظم الجمان لابن القطان ، ص 17.

(4) فوزى سعد ، الشعر الأندلسى ، ص 242-244. ومن قول صفوان التجيبى فى قصيدته :

قفوا ساعدونا بالدموع فإنها لتصفر فى حق الحسين ويعظم

ومهما سمعتم فى الحسين مراثيا تعبر عن محض الأسى وتترحم

فمدوا أكفا مسعدين بدعوة وصلوا على جد الحسين وسلموا . أنظر : نفسه ، ص 243، 244.

الأديب الشاعر عبدالله بن محمد بن قاسم الرعيّني (ت 571هـ/1175م) (1) ، وكتاب (معادن اللجين في مراثي الحسين) ، (در السمط في خبر السبط " في أخبار الحسين بن علي" لابن الآبار المالكي (2).

وفي إمارة غرناطة نجد ابن الخطيب في عصر بني نصر يصف لنا هذه المآتم في إشارة ذات أهمية كبرى عن عادات أهل الأندلس عامة وأهل شرق الأندلس خاصة في ذكرى استشهاد الإمام الحسين التمثيل بإقامة الجناز وإنشاد المراثي ، وذكر أن هذه المراثي كانت تسمى الحسينية وأن المحافظة عليها بقيت إلى أيام ابن الخطيب الغرناطي في عهد مملكة غرناطة (635-897هـ / 1238-1492م) ومما ذكره " ولم يزل الحزن متصلاً على الحسين والمآتم قائمة في البلاد يجتمع لها الناس ويختلفون لذلك ليلة ويوم قتل فيه بعد الأمان من نكير دول قتلته ولاسيما بشرق الأندلس. فكانوا على ما حدثنا به شيوخنا من أنهم بالشرق (شرق الأندلس) يقيمون هم الجنازة في شكل من الثياب يسجوه خلف سُترة في بعض البيت ويحتفل بالأطعمة والأضواء والشموع وتجلب القراء، يوقد البخور ويتغنى بالمراثي الحسينية.... والحسينية التي يستعملها اليوم المُسمعون، فيلون العمام الملونة ويبدلون الأثواب في الرفض كأنهم يشقون الأعلى عن الأسفل، بقية من هذا لم تنقطع بعد وأن ضعفت، مهما قيل: الحسينية أو الصفة، لم يُدرّ اليوم أصلها. (3)"

(1) ابن دحية ، المطرب في أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الإياري ، حامد عبدالمجيد ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، 1954م ، ص 240.

(2) ابن الآبار : إعتاب الكتاب، تحقيق صالح الأشر، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق، ط1، 1380هـ/1961م، ص 20، 22.

3 أنظر : أعمال الأعلام : تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، 1/74-75.

المبحث الخامس : تاثر الثقافة والأدب بالفكر الشيعي .

وكان من آثار الفرق الإسلامية أن تأثرت الثقافة والأدب بالفكر الشيعي أو بالطابع الشيعي في بعض جوانبها . حيث انتقلت رسائل إخوان الصفا إلى الأندلس بما كانت تحويه من فكر شيعي باطنى . فضلاً عن انتقالدواوين ومصنفات أشهر الشعراء والكتّاب والأدباء الشيعة في بغداد إلى الأندلس وبروز تأثيرهم ومنهم أبو بكر الخوارزمي (ت 385هـ/995م) وبديع الزمان الهمداني (398هـ/1007م) والشريف الرضي (ت 405هـ/1014م) ومهيار الديلمي (ت 428هـ/1036م). كذلك ازدادت صلات الأندلس بمصر وشمال إفريقيا وقد تبادلت بعض الرسائل بين علي بن مجاهد العامري صاحب دانيه والخليفة الفاطمي المستنصر بالله سنة (452هـ/1060م) كما هاجر كثير من الأدباء من المغرب ومصر إلى الأندلس وقد ذكرهم ابن بسام في موسوعته الأدبية الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة تحت باب الغرباء .

ومن مظاهر التأثير الشيعي في هذه الفترة أن مدرسة محمد بن مسره الاعتزالية والتي شابها بعض التشيع قد استمرت ممثلة في طائفة من المفكرين كان من أبرزهم إسماعيل بن عبد الله الرعيني الذي عاش في المرية وكان أنصاره يعدونه إماماً يؤدون إليه الزكاة . كذلك تشيع كثير من عرب وبربر الأندلس والتسمية بأسماء أهل البيت وظهور عقيدة المهدي المنتظر كأمل في رفع الظلم والعسف عن المسلمين عامة والشيعة خاصة، فضلاً عن هذا انتشار بعض أفكار ومعتقدات الشيعة في هذه الفترة مثل الرجعة، والجفر والتناسخ⁽¹⁾.

وكان ابن دراج القسطلي (ت 421هـ/1030م) (من أفضل الشعراء الذين اتصلوا بالحموديين، ولم يبق من شعره الشيعي إلا قصيدة هاشمية مدح بها علي بن حمود واحتفظ لنا ابن بسام⁽²⁾ بأكثرها، مفضلاً إياها على هاشميات كثير عزة والكميت بن زيد والسيد

1مكي : التشيع ، ص131-132.

2أنظر : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت 1399هـ/1979م ، القسم الأول 1، ص70-73.

الحميري ودعلبل، وفي هذه القصيدة يحتج ابن دراج لإمامة الحموديين ويقول أنها ثابتة بنص القرآن وبديل العقل، وبحكم حقهم في ميراث النبي:

فأنتم هداة حياة وموت وأنتم أئمة فعل وقيل
وسادات من حل جنات عدن جميع شبابهم والكهول
وأنتم خلائف دنيا ودين بحكم الكتاب وحكم العقول

ويعتبر ابن دراج أول من ذكر مناقب أهل البيت في أسلوب حزين مؤثر، وكان نواة للقصائد الأندلسية التي تناولت مراثي أهل البيت، والحقيقة أن هذه القصيدة تعد من خير ما أنتجه الأدب الشيعي، وقد بلغت في وقتها من الانتشار حداً بعيداً واهتم بها رواة الشعر وخصوصها بالدراسة والحفظ. (1)

وأمتاز الأدب الأندلسي بأن بعض أديبائه أوقفوا من أنفسهم شعراً لكرههم كما فعل الشاعر محمد بن مسعود بن طيب بن فرج بن خلصة الغافقي الشقوري (ت 540هـ/1146م) حيث قال:

أنتهيب الأيام فلذة أحمد وأفلاذ من عاداهم متودد
أيضحى ويظمى أحمد وبناته وبتنزيادوردها لا يصرد
وما الدين إلا دين جدهم الذي به أصدر وافي العالمين وأوردوا
عرج على الطف أن فاتتك مكرمة وأذالدموعها سحاً وهتاناً
وأبك الحسين ومن وافي منيته فيكره بلاء مضوا مشيئو حدانا
يا ليت شعري أي جريح الطف دونهم أهين نفساً تفيد العزم من هانا

1 ديوان ابن دراج، تحقيق محمود علي مكي، المكتب الإسلامي، دمشق، طبعة ثانية، 1389هـ، ص 68؛ وانظر: ابن الأبار: تكملة، ترجمة 1695؛ مكي: التشيع، ص 138-139.

وهذه القصيدة الحسينية للشاعر صفوان بن إدريس التجيبي (ت 598هـ) (1) الذي اختص بتأبين وبكاء أهل البيت ورتاء الحسين توضح تأثر الأدب الأندلسي بالطابع الشيعي في بعض جوانبه

سلام كأزهار الربى يتنسم
على مشهد لو كنت حاضر أهله
على كربلاء لا أخلف الغيثُ كربلاء
مصارع ضجت يثرب لمصايبها
ومكة والأستار والركن والصفاء
لو أن رسول الله يحيى بعيدهم
وأقبلت الزهراء قدس تربها
تقول: أبي هم غادروا ابني نهبة
سقوا حسناً السُّم كاساً رديّة
وهم قطعوا رأس الحسين بكربلاء
فخذ منهم ثأري وسكن جوانحها
أبي وانتصر للسهب واذكر مصابه
فيا أيها المغرور والله غاضبُ
ألا طرب يُقلى ألا حزن يصطفى
قفوا ساعدونا بالدموع فأنها
ومهما سمعتهم في الحسين مراثيا
فمدوا أكفأ مسعدين بدعوة

على منزل منه الهدى يتعلمُ
لعاينت أعضاء النبي تقسمُ
والإفان الدمع أندی وأكرمُ
وناح عليهن الحطيم وزمزمُ
وموقف حج والمقام المعظمُ
رأى ابن زياد أمه كيف تعقمُ
تنادي أباها والمدامع تسجمُ
كما صاغه قيس وما مج أرقمُ
ولم يقرعوا سناً ولم يتندموا
كأنهم قد أحسنوا حين أجزموا
وأجفان عين تستطير وتسجمُ
وغلته والنهر ريان مفعمُ
لبنت رسول الله أين تُيمم
إلا أدمع تجري ألا قلب يُضرمُ
لتصغر في حق الحسين وتعظمُ
تعب عن محض الأسي وتترجمُ
وصلوا على جد الحسين وسلموا

1 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 1/ 74-75.

ومن أبرز من نظم القصائد الحسينية ابن الأبار الذي تأثر بالفكر الشيعي حيث كان يشاهد العزاء الحسيني في مسقط رأسه بشرق الأندلس، وقد سمع من أساتذته مراثي الإمام الحسين . إذ كان أحد أساتذته المسمّى أبو الربيع سليمان الكلاعي، على علاقة خاصّة وحميمة بالشاعر صفوان بن إدريس، وقد تعرّف ابن الأبار على هذا النوع من الأدب، المعروف بأدب البكاء، على يد هذا الشاعر؛ ومن ثم فلا غرابة في اهتمام ابن الأبار بمصائب آل بيت الرسول، وبالخصوص فاجعة كربلاء التي أولاها عنايةً خاصّة؛ في كتاباته وآثاره .

ومن بين آثاره كتابين، يُقدّمان صورةً واضحةً عن ميوله الشيعيّة؛ وهما دُرر السمط في خبر السبط، والآخر معدن اللّجين في مراثي الحسين (1)، وهو كتاب لم يصل إلينا. الجدير بالذكر أن ميول ابن الأبار التي تحدّثنا عنها آنفاً دفعت البعض إلى نسبته للتشيع، ومن هؤلاء الحافظ الذهبي (ت748هـ) الذي قال: " وقد رأيت لأبي عبد الله الأبار جزءً سماه " درر السمط في خبر السبط عليه السلام " يعني الحسين بإنشاء بديع يدل على تشيع فيه ظاهر، لأنه يصفعلياً رضي الله عنه بالوصي، وينال من معاوية وآله " (2).

وقد ذكر المقري نصوصاً من كتاب ابن الأبار: " درر السمط "، وعقب عليها بقوله: " انتهى ما سنح لي ذكره من " درر السمط " وهو كتاب غاية في بابه، ولم أورد منه غير ما ذكرته، لأن في الباقي ما تشم منه رائحة التشيع، والله سبحانه يسامحه بمنه وكرمه " (3).

ورغم أن كتاب ابن الأبار دُرر السمط يعظّم جلاله أهل البيت ويذمّ بني أميّة؛ لكنّ هذا وحده لا يُثبت تشييعه؛ لأنّ تشييع ابن الأبار يعني الحبّ والولاء لأهل البيت لا الاعتقاد بالأسس الفكرية للشيعية الإمامية؛ ولهذا نلاحظ أنّ ابن الأبار رغم أنه يقول بأن عليّاً كان وصي رسول الله، وأنّه سيد الأوصياء، لكنّه لا يعتقد بما تعتقد به الشيعة من الوصاية بل

1 عنان : تراجم إسلامية ، ص352.

2 أنظر : سير أعلام النبلاء ، 338 / 23 .

3 أنظر : نفح الطيب ، 4 / 505.

يقول: إنه آخر خليفة للمسلمين، وأن معاوية أول ملك بعد ظهور الإسلام، كما يرى أئمة معاً عليّ ومعاوية في الجنة.

ويتحدث ابن الأبار في أحد قصائده الشعرية عن أهل السنة بعيداً عن الرفض وهو التشيع الإثنا عشري والنصب والبغض، ويكتب أيضاً في رسالته إلى أبي المطرف: (كلا، بل دانت (الأندلس) للسنة، وكانت من البدع في أحسن جنّة..) كناية عن بدع الشيعة الإثني عشرية والفرق الأخرى، ومثلها كان ابن الأبار يبجل أهل البيت. كان أيضاً يكن الاحترام للخليفة الأول، وكان يعظم الخليفة الثاني بالخصوص، ويعتقد أن باب الفتنة قد فُتح بعد وفاة عمر، ولو كان حياً لما وقعت تلك المصائب والفتن الكبرى، سيما فتنة يوم الدار أي يوم مقتل عثمان وفاجعة كربلاء.

ويذكر ابن الأبار بعض فضائل علي مثل فضيلة أول مؤمن من الذكور، والتي لم يستطع غيره من الخلفاء الوصول إليها، وقد فهم من حديث المنزلة واستنبط شيئاً يخالف تماماً ما استنبطه الشيعة الإمامية من الحديث نفسه، وقد ذكر ذلك في كتابه، فقد صرح ابن الأبار قائلاً: لولا هذه العبارة (لا نبي بعدي) في حديث المنزلة لصار اتباع عليّ واجباً بعد رحلة الرسول فالاستثناء الذي جاء في ذيل الحديث (إلا أنه لا نبي بعدي..) منع من وجوب اتباع علي. في حين أن الشيعة رغم اعترافهم بخاتمة الرسالة، لم يمنعهم ذلك من اتباع علي بن أبي طالب، ويذكر ابن الأبار أبا طالب استطراداً، ويقول ما قالته السنة فيه من أنه رحل عن الدنيا كافراً في حين أن الشيعة تعدّه مؤمناً.

قلت: ومن جملة ما تقدم من شواهد فلا يمكننا أبداً أن نحكم على ابن الأبار بالتشيع، وأقصى ما يمكن أن يقال فيه أنه كان شيعي الهوى ليس إلا من خلال حبه لآل البيت ومدحه لهم بطريقة يظهر فيها الإسراف بعض الشيء.

ويعتبر أبو البقاء الرندي (ت 684هـ/1285م) من الشعراء البارزين الذين خصوا الحسين بن علي وكربلاء بالشعر حيث قال:

أبيت فلا يساعدي عزاء إذا ذكرا الحسينو كربلاء

فخل الوجد يفعل ما يشاء لمثاليوميد خرابكاء

ويتضح تأثر الثقافة والأدب بالفكر الشيعي من خلال كتاب العقد الفريد لابن عبدبره والذي يسفر عن بعض ظواهر قد تمثل طابعاً شيعياً باهتاً ، أو ميلاً بعض الشيء لأهل البيت ومنها :

أولاً : المبالغة بعض الشيء عند ذكره على بن أبي طالب وأبنائه ، ومن ذلك ذكره علياً بن أبي طالب في مواضع عديدة بقوله : " عليه السلام " (1) ، وتخصيصه بذلك دون غيره من الصحابة ، وهو نفس ما تذهب إليه الشيعة .

ثانياً : ذكره لمرويات ظاهرها فيه تشويه لصورة بعض أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم حيث ذكر أن حسان بن ثابت رضي الله عنه بكى حين سمع قينة تغني لأنها شوقته لحياته الجاهلية فأورد عن الأصمعي أنه قال: شهد حسان بن ثابت مأدبة لرجل من الأنصار وقد كف بصره ومعه ابنه عبد الرحمن فكلما قدم شيء من الطعام قال حسان لابنه عبد الرحمن : أطعام يد أم طعام يدين؟ فيقول له طعام يد حتى قدم الشواء فقال له هذا طعام يدين فقبض الشيخ يده فلما رُفِع الطعام اندفعت قينة تغني بهم بشعر حسان :

انظر خليلي بباب جَلَّتْ هل *** تبصر دون البلقاء من أحد

جمال شعثناء إذا هبطن من الـ *** محبس بين الكئيبان فالسند

قال: فجعل حسان يبكي وجعل عبد الرحمن يومئ إلى القينة أن تردد! قال الأصمعي:

فلا أدري ما الذي أعجب عبد الرحمن من بكاء أبيه (2).

1 أنظر : العقد الفريد ، 2/238، 129، 196، 3/102.

2 أنظر : العقد الفريد ، 7/7.

ونقل عن الصحابي الجليل عبد الله بن عمر . رضي الله عنهما . أنه شرب الخمر فحُد: حيث قال: " ومنهم عبد الله بن عمر بن الخطاب شرب بمصر فحده عمرو بن العاص سرًا فلما قدم على عمر جلده حداً آخر علانية " (1).

وذكر عن معاوية بن أبي سفيان . رضي الله عنه . أنه كان يأمر أصحابه بلعن أمير المؤمنين علي . رضي الله عنه . على المنابر وفي المجتمعات وفي المجالس .

ثالثاً : خوضه في الفتنة التي وقعت بين الصحابة ، ومذهب أهل السنة الإمساك عن ذلك .

وتجدر الإشارة أن الشواهد السابقة لا ترقى لوصف ابن عبد ربه بالشييع . بل كما سبق وأن ذكرت لا يعدو الأمر عن ميل لأهل البيت مع بعض المبالغة والتجاوز إن صح التعبير، ولعل ابن عبد ربه فطن إلى وقوف بعض الأندلسيين على ذلك ، وهو في بيئة أموية تستأسد لموجهة أى خطر يهدد ملكهم ، ومن ثم رأيناه وبعمد - فيما نرى - يصيغ أرجوزة يتقرب بها إلى بنى أمية ويخرج منها علياً بن أبي طالب من زمرة الخلفاء (2) كما سبق وأن ذكرنا بالفصل الأول من هذه الدراسة .

1 نفسه ، 62/8 .

2 أنظر : المقرئ : نفع الطيب ، 511/512/2 ؛ عبد الباقي السيد : تاريخ أهل الظاهر ، ص 156 .

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

obeyikan.com

المبحث السادس : الإنتاج الفكري والثقافي لاتباع الفرق الإسلامية

حرص أتباع الفرق الإسلامية على نشر أفكارهم من خلال التأليف والتصنيف ، مثلما كان من أمراً حد رجال الخوارج الأباضية أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي الوردجاني (ت 570هـ) الذي انتقل من سدراته إلى قرطبة ، وتجول في ربوعها وارتاد مساجدها واتصل بشيوخها ، وقد ذكرت كتب السير أنه ارتحل إلى الأندلس وهو شاب ، وسكن قرطبة وفيها حصل علوم اللسان والحديث والفلك وغيرها .

ومن آثاره كتاب في أصول الفقه " العدل والإنصاف " وكتاب في أصول الدين " الدليل والبرهان " وقام بترتيب المسند (مسند الربيع) ، وقد كان مشوشاً وضم إليه بعض الروايات ومراسيل جابر بن زيد ، ووضع كتاباً في الفلسفة والهندسة والمنطق والحساب (1) ، وله ديوان شعر (2) ، ومن أشهر قصائده فيها القصيدة الحجازية يصف فيها رحلته إلى الحجاز بكثير من التفاصيل مع تضمينها مواظ وحكماً ، وهي مرثية طويلة يرثي بها شيخه أبا سليمان أيوب بن إسماعيل (3) ، وله رحلة إلى بلاد السودان ذكر فيها غرائب (4) وهي رحلة تجارية وليست علمية .

ومن آثار الوردجاني كتابه العظيم في تفسير القرآن يقول الشيخ البرادي وله في تفسير القرآن كتاب عجيب ، رأيت منه في بلاد آريغ سفراً كبيراً ، ولمأراً ولا رأيت سفراً أضخم منه ولا أكبر ، وحرزت أنه فسر القرآن في ثمانية أسفار مثله ، فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدور في لغة وإعراب أو حكم مبين ، أو قراءة ظاهرة ، أو شاذ ، أن ناسخ أو منسوخ أو في

1 السالمي : حاشية الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب ، مكتبة الأزهار البارونية ، القاهرة ، 1326هـ/1908م ، 3/1 .

2 أنظر : طبقات المشائخ بالمغرب ، تحقيق إبراهيم طلاي ، مطبعة البعث - قسنطينة - الجزائر ، 1974م ، 2/351 .

3 أنظر : طبقات الدرجيني ، 4/461 .

4 الوارجاني : الدليل والبرهان ، تحقيق سالم بن حمد الحارثي ، بدون دار نشر ، ط 2 ، 2006م ، 3/209 .

جميع العلوم ، فإذا ذكر آية ، فأول شيء يذكر إعرابها ويستقصيه ، ثم اللغة فيستقصي جميع تصاريف الفعل من الكلمة ثم الصحيح فيحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسوق الرواية من كتاب الربيع المعروف إلى أنيقول: ولقد ذكرت أمره مع بعض الطلبة المميزين هناك فقال لي : لو وجدت هذا التأليف كاملاً لاسترخصته بخمسين ديناراً ولكن من ضعف بخت أهل هذا المذهب ، وقلة اكترائهم بشيء غفلوا عنه حتى أنه لم يعلم به أكثرهم ، ولم توجد عندهم نسخه واحدة (1) .

وبرز لنا من منظري الأشعرية في الأندلس أبو بكر محمد بن سابق الصقلي (ت 493هـ) الذي نجح في تكوين مدرسة من مريديه وتلاميذه (2) ، واستطاع أن يدافع عن مذهبه وفكره في ظل دولة المرابطين ، ومن ثم وجدنا له بعض المصنفات ومنها :

1- جزء في معنى كلام الله تعالى والرد على المخالفين ، وسبب تأليف هذا الكتاب أن بعضهم سأله أن يصنف كتاباً في مسألة معنى كلام الله فأجاب السائل ، وتعقب في كتابه رجلاً مصرياً يدعى الشيرازي ، وشدد عليه النكير حتى ذهب إلى حد لعنه ولعن من يقول بمقالته (3) .

2- كتاب في الحدود الكلامية والفقهية على مذهب أهل السنة الأشعرية (4) .

1 نقلًا عن عمار الطالبي : آراء الخوارج الكلامية ، 293/2 .

2 عنه أنظر : سمير قدوري : من شيوخ الأشعرية بالأندلس ، مجلة آفاق الثقافة والتراث ، ص 91-100 .

3 نفسه ، ص 95 .

4 نفس المرجع والمكان والصفحة .